نهضتنا

خطاب السيدة استير ازهري دويال رئيسة محفل الغائلة المحمولة
في حفلة جمعية شمس البر

ايها السيدات والسادة — انقول قضي الامر وجف القلم . وكتب على شرقنا الشمس ان يكون آلة صماء في يد الغرب . يديره كما يشاء ويلعب به وبسكانه كما يريد ويتصرف فيه تصرف المالك بما تملك يده . فيتقسم اراضيه عابثاً بكل الحقوق الدولية . هازئاً بكل القرارات السلمية حتى مني عن لاي دولة منه توسيع نطاق اراضيها . محمت علينا بخيلها ورجلها واكتسحت بلادنا . بعد ان تلشم في ارجائها الخراب والدمار . وتنظر الينا نظر المولى الى عبده والجبار القادر الى حيوان حقير لعابه . ابحث له الايام ادلاله واحل له الدهر استعباده .

ام نقول . لنا عقول مفكرة . ورؤوس مدبرة واذرع قوية وايد عاملة . فما علينا الا ان نستعملها في السبل القويمة التي اختطتها هذه الشعوب المقتدرة لانفسهم قبلنا ليكون نصيبنا في هذا الوجود نصيب الاحياء العاقلة القابلة للفلاح العلمي والعملي . والقادرة ان تحمي ذمارها . وترد كيد اعدائها . وتدفع عنها طمع الطامعين فيها

أنقول قد ورثنا الذل عن اسلافنا . وسرى العجز في عروقنا مع الدم الذي يغذي ادمغتنا حرمنا العزيمة الذاتية التي تدفع كلاً منا لمقاومة العثرات وبمغالب الشدائد التي تعترضه دون الوصول الى النقان الفن الذي يراوله . او الحرفة التي يرتزق منها من غير ان يكون مدفوعاً اليها بحكم الضرورة او لارضاء اب او اخ . او بداعي الميل الى المجد الفارغ او بعامل حب الظهور او ما شاكل ذلك ام نقول كلا جبلنا من نفس الطينة التي جبلت منها هذه الشعوب الناجحة الذين انقادت العناصر لارادتهم وصيروا المادة الجامدة طوع بنانهم . وانا قد اعطينا نفس المواهب التي اكسبتهم رفعة وعظمة فما علينا الا ان نستعملها لنجعل كلاً احرص على استعدادنا للوصول الى ما لا يحد من الكمالات النفسية السامية التي تفتح لنا مغلقات اسرار الطبيعة وخصائص موادها ودقائق حوادث الارض واحوالها اليومية . وان ميلنا للكمال عظيم وشغفنا بالوصول اليه شديد . واننا نقدر الفنون الجميلة حق قدرها . ونعلي قيمة اربابها بيننا . واننا نفهم معنى الجمال الحقيقي ونسعى جهدنا لنتحلى به ونحلي اوطاننا العزيزة بمحاليه التي تفرح النفوس الشاعرة . وتبهج القلوب الحساسة . وتخلق الافكار العالية . والآراء السامية .

انتظر الى هؤلاء الاوربيين وهم مجتمعون في الحر وقد ملكوا اعنة الريح لتتجهم صفة الالوهية كما نظر اليونان القدماء الى هرقلهم ومن قبل على آثره بنيهم فجعلوا حداً بين ضعفهم وقوة هؤلاء الابطال وبين عجزهم ومقدرة اولئك الجبابرة العظام، فوضعوهم في مصاف الآلهة ووهبوهم صفة الخلود . مع انهم بشر مائتون . فنيأس ونقنط ونقول . بهذا حكم الدهر ولا مرد لحكمه . وما الشعوب على الارض الا الكواكب في السماء . هذا عظيم متألق نوره هائل في الكر . وذاك حقير ضئيل متناه في الصغر . كلا . اليليق بنا ان نحتقر اعضاء بمثل هذا المجتمع . ولنا عزائم شديدة . ورؤوس مفكرة لو سيرت بحسب الهامانها وعملت بما توجبه اليها لزعزعت الجبال من اساساتها وصيرت البحار صعيداً جرزاً اي يبست نباتاً

ان بلادنا ان انحطت . وموارد ثروتها ان شحت . واهاليها ان ارغموا على هجرتها . فالذنب ذنب كل واحد منا وكل منا مسؤول عما يصيبنا من الخراب . وما ينتاب سكانها من المحن ودواعي الاضمحلال . ولا عتب في ذلك على الاقدار . وهي قد وهبتنا بلاداً يضرب المثل بصفاء سمائها . وطيب هوائها . وجمال موقعها . وخصب تربتها

انظروا الى الجنس الاصفر وما كان يوصف به من البلاهة والبلادة وصغر العقل . هل وقفت اليابان عند هذا الاعتقاد . وطأطأت امام صاغرة تحت تأثير ذلك الحكم الذي اطلقته اسلافها بسبب كسلهم وتهاملهم وجهلهم . الم تروا كيف انهم هبوا بداً واحدة وصاروا في سبيل العلم النيرة التي جعلتهم يضاهون اعظم دول الارض عظمة ومجداً

ام هل استسلمت البلاد الالمانية لعوامل تفرقتها وظلت متباينة في مجاهلها القمرية وفي مصالحها السياسية وفي امارتها المتباعدة ام وحدت مصالحها كما وحدت لغاتها بان استصفت من بينها تلك التي وضع فيها شيلر وجيتي منظوماتهما البليغة وجعلتها لغة البلاد اجمعها هازئة بالقديم ساخرة به . انظروا الى اولئك الفلاحين منهم الذين قدموا بلادنا منذ العشرات من السنين واستعمروا في مدينتي حيفا ويافا فاصلة صيروها بتعاملهم وتنافسهم والقادم جنات خضراء تسر الناظر وتشرح الخاطر لانوا فيها عيشاً هنيئاً ورزقاً طيباً بينما فلاحها الوطني يفترش الارض ويلتحف السماء لفقره . افلا تهتف عندما ترى هذا الفلاح الالماني بحسن الفلاحة والتجارة والحدادة وكل عمل يتوقف عليه رفاهية منزله وراحة زوجته واولاده ان بين اصابع هذا الرجل كنزاً لا يفنى وان بيده ملكيت الارض افلا يشتد عجباً حين نرى ان فلانة منهم التي هبطت لايتها الجهالة مهراً مهماً (دوطة) تضعها في مدرسة المطبخ مدة سنتين بعد ان تتم دروسها في جامعات برلين وان اعياها الامر تضعها عند بيت احد

الوجهاء لتتعلم فيه شغل المنزل وادارة البيوت · اجل سادتي اذا رأيتم المانيا عظيمة بجندتها · عظيمة بتجارتها عظيمة بصناعتها · واسعة بمستعمراتها فهي مدينة بذلك لاحقر فلاح من سكانها الذي يهتف باسودة « دوتشلاند او برالليس » اي المانيا فوق الكل من خط الاستواء الى قطبي الارض

من كان يظن ان فرنسا تقدر ان تدفع لعدوتها بعد تلك الحرب الضروس سنة ٧٠ خمسة مليارات فرنك بهذه السرعة · وتعود لزعامة البشرية وقيادة حركة الفكر بين ابنائها في العلوم والفنون والصناعة حتى كانت الاولى في اتقان فن الطيران · انها برجال مثل باستور وروهاير وهيكو وكوري وغيرهم قد نالت مجداً وسؤدداً لا يفنى على مر الدهور

بل انظروا الى البلاد الاسوجية التي كاد المسكر يقضي عليها لو لم تبادر فتخلق لها العابا رياضية مسلية · وتعليماً ابتدائياً مناسباً اعاد لها شبابها ووهبها نشاطاً جديداً وصحة متينة

بقي علينا بعد ان علمنا ذلك ان نرمي نظرة اجمالية في احوال بلادنا علنا نعرف بها المبلغ الذي وصلنا اليه من التمدن العصري الذي اتخذ له المال اساساً وركنا فنقول

ان من ينظر الى الامور نظراً سطحياً يجد اننا قطعنا في سبيل العمران شوطاً بعيداً · وبلغنا منه شأواً قصياً · كيف لا وقد سكنا القصور الشاهقة وتزيينا بالازياء الباريسية الجميلة · ودرسنا اللغات الاوروبية · ولنا جرائد ومجلات تكاد تنقل اخبارنا الى احقر قرية من قرانا ولنا المصارف والمتاجر والمعامل الخ ولكن امثل هذه المظاهر تعظم الشعوب وتسود الممالك ؟

سادتي · اذا خالفت احلافنا على ما هي عليه الان من احتقار الاعمال البدوية والتشبث بحب المجد الفارغ وحب الظهور عبثاً نحاول الصعود وميمما نحونا نظل بالحضيض لاصقين والا فما بال ابنائنا تتهافت على درس الطب والصيدلة وتترك الصناعة جانباً نافرة من كور الحداد ونيرانه ومنشار النجار ونشارته · متباعدة عن الزراعة التي توفيهم رزقاً حلالاً طيباً راساً من الله · دون ان تلجئهم الى تملق زيد ومداجاة عمر افلا يذوب القلب حزناً وحسرة عندما نجد نفراً بيننا من ذات الافرنج الليالي لم تعتد الملهين الا الضرب على البيانو واثارة القلوب بالحانها الشجية قد اخذن في درس فن الزراعة لتشغفن به في حين لا يلاقي هذا الفن من ابنائنا على شدة حاجتنا اليه الا الاهمال والترك · واراضينا الزراعية بحمد الله واسعة وانهارنا غزيرة فلو اعطيت شيئاً من العناية لفاضت على البلاد ينابيع الثروة وزادت اسباب اليسر وعم الرخاء والا فما نفع القصور التي شيدت من بيع حقل كانت محاصيله تقوم

بنفقات العائلة . وما نفع المعامل اذا كانت قاصرة على حل الشرنقة وسحب خيطها . وما نفع الازياء الحديثة اذا كان لابسها نظير الخياط والطبيب من التجار والصيارف الذين يعلون افلاسهم عندما يجدون خزائنهم ملأى بالنضار مفعمة بالاصفر الرنان فيستغلون لانفسهم مال اليتيم والارملة او يضمرون النيران في مخازنهم لقبض المبالغ المضمونة لها

اما جرائدنا فاغلبها يحمد الله لا تهتم الا بالتوافه والسخافات ولا تظهر بلاغة اصحابها الا متى احتدوا بالشتائم . والا فما نفعها اذا لم يكن لاصحابها اخلاص متين وشجاعة ادبية مكينة تحملهم على احقاق الحق واذهاق الباطل كيف لا وهي لسان حال الشعب وحامي حماه . ورافع لواءه ومدرسته الثانية . فيها يتعلم حوادث الدهر وعبر الايام . فاذا لم تقم مقام الاستاذ الحكيم الذي يهذب النفوس ويثقف العقول . ومقام الجراح الماهر الذي لا يتأخر عن استعمال مبضعه ولو آلم مريضه . ولم تجعل الحرية والمساواة والاخاء شعاراً لها ساء مصيرها وادت الى الشقاق والتخاذل بينما نحن في اشد الحاجة الى ما يؤلف القلوب ويجمعها تحت لواء العدل حتى اذا ما رأت من الحكام اعوجاجاً او زيغاناً عن الحق اما لعدم كفاءتهم للمناصب التي يشغلونها او لكونهم قد باعوا ذممهم لمال سحت يفيضونه شهروا بهم وسفهوا احكامهم فيرغمونهم على ان يسلكوا سبل الرشاد او يعتزلوا القضاء

اما من العار ان يشعلوا فراءهم مدة شهر بن عن ايهما افضل القبعة ام الطربوش حينما كانت ايطاليا تحشد الجيوش وتهيء الاساطيل وترسل الهبات تترى الى طرابلس الغرب شراء لمودة سكانها عليهم بمالونها على خيانة اوطانهم ويطعنوها طاعنة باردة

وماذا اقول في متاجرنا التي تزيد وارداتها على صادراتها ولا تكسبنا الا عمالتها . انها اذا بقيت على هذه الحال كانت اضرارها جسيمة وتهددنا الفقر من كل صوب . لاننا اذا بعنا الرطل الواحد من بضائع الخام مثلاً بعشرة غروش ثم عدنا فاشترينا العشرة الدراهم منها بعد تهيئتها للاستعمال اليومي في اوربا بنفس هذه القيمة نكون كمن يلحس المبرد . نعم ان المهاجرة قد سدت شيئاً من هذا النقص السنوي ونشرت في البلاد شيئاً من الرفاهية والرخاء ولكن كم يكون نفعها عميماً وخيرها مقيماً لو كان هذا المهاجر الكريم لا يبادر حين عودته الى الاوطان الى بناء قصر منيف يستغرق كل راسماله وربما استدان فوقه لاتمام بنيانه . فانه مهما باهى وفاخر به الاقران لا يفيد البلاد الا تحسين هيئتها الخارجية لكنه لو عقل وعرف طريق الخير لنفسه ولوطنه اصاب ماله في اسواقه تسهيلاً لمرافقه . او لاتحد مع اخوانه في الوطنية . واتفق معهم بصفاء نية وحسن طوية والف واياهم الشركات وقاموا

سوية بمشروعات نعيد لم منى تسلبها اناس عرفوا بحسن السيرة والاستقامة الفرش عشرة او تزيد

كفانا بقوم ما نحن فيه من حب الاثرة التي لا تكون عاقبتها الا الفشل والخيبة . كفانا انقساماً وشقاقاً وتحاسداً . ان المرء قليل بنفسه كثير باخوانه . انه متى انفرد وتفادى بحب ذاته ولم يعبد الا انانيته . ولم يرد الخير الا لشخصيته المقدسة ظل في مكانه جامداً لا يتقدم خطوة الى الامام . بينما يرى الشعوب حوله قد حولت بلدانها باتحاد بنيها الى فراديس ارضية فيها كل ما يحبي القلوب الماتة . ويثقف العقول الخاملة . ويهب علماً للجاهل . وقطنة للبليد الابله . من جنائن نباتية ومن حدائق حيوانية . ومن متاحف قيمة ومن اثار تاريخية . ومن تماثيل ومن انصاب رفعت احياء لذكر رجالها العظام وكلها آيلة لترفع ذوق الانسان وتربطه بماضي قومه المجيد وافعالهم الحميدة التي اذا اقتدى بها وسار في سبلها فتحت امامه ابواب العظمة وكان ذريعة شرف ومجد لبلاد التي ينتمي اليها

كيف يمكننا ان نلبي نداء الوطن الذي يجير بنا من الاهمال الذي رمته فيه عيشتنا الفردية وانشقاقاتنا العنصرية وعدم ثقة الواحد منا برفيقه . طالما نحن بحالتنا فالعمون . والاقدار مستهزئون . انما كان من الواجب علينا ان نستبدل الزراعة القديمة وهي من اهم اركان ثروتنا بالزراعة الحديثة المبنية على العلم الصحيح وان نرسل المدرسة الى الفلاح الذي لا تمكنه ظروفه ان يذهب اليها . وان نبدل الاته القديمة بالحديثة ونقدم له الاسمدة الكيمياوية التي تعطيه ٣٧ رطلاً لكل رطل من الغلة كما هو معمل محاصيلها في مستعمرات فلسطين الحديثة . انما علينا ونحن ابناء هذا العصر عصر الكهربائية والطيران الذي يهزأ بالابعاد ويسخر بالمسافات ان نتخذ من حب الوطن دافعاً قوياً يدفعنا الى تقديم مصلحته على كل مصلحة غيرها ونهب يداً واحدة وقلباً واحداً لجمع الاموال اللازمة لتقوم بشركات ومشاريع تبث اسبابها في طول البلاد وعرضها فتبعث الحياة في اراضينا الميتة وتنشر في ارجائها الحركة بحيث لا تعود نرى فقراً واحداً منها لا تعمل فيه الايدي التي تديرها رؤوس مستنيرة بالعلوم العصرية الكافلة لها سبل النجاح . رؤوس افراد قضوا السنين الطوال وهم مكبون آناء الليل واطراف النهار على درس الفنون التي خلقوا لمزاولتها والتي ترشدهم لمعرفة مكامن كنوزنا . ومخابىء معادننا التي متى اخذنا بتعدينها وصهرها وتحويلها الى الات حربية وصناعية وزراعية ومنزلية افاضت على البلاد بالخير العميم وفتحت امام ابنائنا ميادين الاعمال الرابحة واسعة امامهم . فيقلعون عن ركوب الاهوال واقتحام مشاق الاغتراب طلباً للرزق

الواسع الذي يقتضيه التمدن العصري وتطلبه المدنية الحالية

اما آن لنا ان نجد في نصب الجسور ورفع السدود والقناطر ومد الخلجان والقنوات بين انهارنا العظيمة التي تذهب مياهها بلا فائدة الى البحار . وتنظم الري والنيل وسائط النقل بزيادة السكك الحديدية . اما حان لنا ان نشرع في تحسين الاراضي والمراتع التي اعطتنا منها الطبيعة المدد الذي لو اعطي لروسيا او لالمانيا لزادت موارد ثروتهما الضعف مثلة . والتي عم بعضها البور واكل قسماً مهماً منها . الى متى كتب على تجار مدينة كبلا التي هي فرضة للاراضي الممتدة ان ترى اموالها يابسها الى البحار حين ارتفاع الامواه واشتداد الزوابع فتخلصاً من عقوبة الفاكهة التي تنتظر في جمركها الشحن البلاد القاصية . الى متى تظل مياه البحر البيض مثقلة بعائداتها . والاراضي المجاورة له لا تنبت سوى الاشواك والادغال حيثما تجد الخصب فيها يحول اعشابها الى شجيرات باسقة

الى متى تظل البحار خالية من سفن نقل تجارية وطنية تحمل بضائعنا الى البلدان النائية دون ان تطوف بها السفن الغريبة كل السواحل والشطوط فيضيع على فاكهتنا الوقت وتتطرق اليها التعفن وترس . بينما نجد السفن كالاخوات المتحدة في البحار لاصغر دولة بلقانية كانت بالامس ولاية من ولاياتنا مع ان من سلك البحار بقدر ما هو مفيد لا يخلو من الجمال لمن يجد من نفسه كفاءة وشعفاً بدرس اسراره تعليه اذا اردنا وطننا حبوراً . ولانفسنا نعماً ان نبذل فيه شيئاً من العناية ولا نترك لدولة كبلغاريا مثلاً الاسبقية عليانيه

هل نعد قوماً ناهضين ونحن لا نادي عندنا يجمع ارباب الفن والحب الصنائع والطرق وقت العطلة للتباحث في شؤونهم الحيوية . والنظر فيما يؤول لنجاح مساعيهم وترقية مصالحهم وتبادل الرأي في احوالهم اليومية . على حين نجد ان اصغر بلدة من بلاد الله الواسعة ملاى بالنوادي التي يختلف اليها رصفاء الفن الواحد مثلاً يومياً . فيوالفون الجمعيات ويتبيون عنهم الجان العاملة التي تدافع عن مصالح اصغر فرد من اعضائهم اذ تقوم سداً في وجوه الحكام المرتشين وذوي النفوذ فليهم ان ارادوا به شراً

هل نعد قوماً ناهضين ونحن نهاب القوي القائم ونتزلف اليه ونحتقر الضعيف ونجتويه . فملق ارباب الاموال وخلق لم يحامد ومكارم لم يحلموا بها ولو كانت قلوبنا منطوية على كراهتهم واحتقارهم لشحهم وشدة حرصهم على المنى

هلموا بنا يا سادتي لنصلح ما فسد من اخلاقنا ونتضرب بالعوائد التي تحول دون نهضتنا الحقيقية عرض الحائط ولنتخذ لنا من العلم هادياً . والشغل قائداً . والاستقامة

مرشداً والحرية نوراً يتألق شعاعه في البيت والمدرسة والسوق . فتؤسس العائلة على قاعدة المساواة بين الزوجين في الحقوق والواجبات . وتجعلها شركة يعيش فيها الكل للواحد والواحد للكل . لا فتدق اكل ومنام يلهو به الفرد الواحد ان الهو يستأثر ما امكنه بلذاته وقت السرور ثم يرمي اثقاله على غيره ليقوم بمشاق حياته التي لم تفرض كل طرقها بالورود والرياحين بل هناك اشواك وادغال على كل فرد من اعضائها مد يده لاقتلاعها قبل ان يشعروا بوخزاتها . ونضع نصب اعيننا ذلك الواجب المقدس الذي يحتم علينا ان نتكر ذواتنا بازاء راحة بنينا وتحسين ذريتنا فنير طريق الحياة لهم بعلم يستوفون اقساطه وعمل يتقنونه فيصونون بكليتهم عليهم عن ميل غريزي فيهم اليه . لا فرق في ذلك بين الذكور منهم والاناث وندربهم على الثبات والصبر والتجلد في الشدائد ونهبهم حرية الرأي والعمل شرط ان لا تمس حريتهم شعور الاخرين وصوالحهم ونعودهم الاستقلال الشخصي . ونفسح لهم ميادين الالعاب الرياضية واسعة بين احيائنا ليقوموا بالعاب وتمارين تقوي عضلاتهم وتعودهم النشاط والسرعة واصابة المرمى ورشاقة الحركة لتتروض اجسامهم وتتسدد خطواتهم ويكون لهم منها خير سلاح يلجئون اليه في الظروف العسرة التي يلاقونها في مستقبل الايام . وبذلك نعد اطفالنا ليكونوا رجال المستقبل ونساءه قد جعلوا حب الوطن ايماناً لهم ومجامعه وعظمته غرضهم ومحجتهم . حتى اذا ما اخذت اراضيهم تفيض لهم لبناً وعسلاً وشروتهم تمطر عليهم سحائب المال تفرغت نوابغهم لاتقان الفنون التي خلقوا لمزاولتها دون ان يعيقهم عن ذلك مجرد البحث عن خبز الغد فلا يعود شاعرنا يجيد النظم ليستجدي ولا يخترع الموسيقي عندنا لحناً يتزلف به للاغنياء والعظماء . بل يكون لكل نابغة عندنا من حبه وشغفه بفنه دافع قوي يدفعه لتوخي درجة الكمال فيه

فيقوم من بيننا العلماء والشعراء والموسيقيون والمغنون والمصورون والنقاشون والنحاتون والكتبة الافاضل ليتموا النهضة الفنية التي قمنا بها على ما فينا الان من عسر وضنك اذ من يقدر ان ينكر التقدم الحسي الذي بدا في الشعر عندنا والغناء معاً . فان الشعر منذ امد غير بعيد بعد ان كان معظمه عبارة عن كلام موزون مقفى اصبح بفضل الشاعر العصري مبدأ واسعاً تتسابق فيه جياد المعاني الشائقة التي تثير الشجون وتطرب النفوس . وبعد ان كان مغنينا يبدأ اغانيه باحثاً عمن يفتش له عن الحبيب . اصبح ينظر الى حبيبه بعين الكمال ويتشرف بالانتماء اليه ويقدم نفسه فداء عنه

فواهاً ليوم نجد فيه فتياننا وفتياتنا يحسنون ايقاع الالحان العربية ويجيدون غناءها